في ظلال القرآن

سورة المسد

مكية .. وآياتها خمس

سيد قطب

منبر التوحيد والجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

+ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ 1 مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ 2 سَيَصْلَى نَـــارًا ذَاتَ لَهَـــبٍ 3 وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ 4 فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ 5 _

| | |

أبو لهب - [واسمه عبد العزى بن عبد المطلب] هو عم النبي ﷺ وإنما سمي أبو لهب لإشـــراق وجهه، وكان هو وامرأته " أم جميل " من أشد الناس إيذاء لرسول الله ﷺ وللدعوة التي جاء بها ..

قال ابن اسحاق: " حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول: " إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجـــل أحـــول، وضيء الوجه ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: " يا بني فلان. إني رســـول الله إلـــيكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني بـــه " وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان. هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال عمه أبو لهب. [ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ].

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب للدعوة وللرسول ﷺ ، وكانت زوجته أم جميل في عونه في هذه الحملة الدائبة الظالمة. [وهي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان].

ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة. أخرج البخـــاري - بإسناده - عن ابن عباس، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم؟ أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب. ألهذا جمعتنا؟ تبا لك. فأنزل الله " **تبت يدا أبي لهـــب وتب** " .. . الخ. وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول: تبا لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟ ! فأنزل الله السورة.

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ ولو لم يكونوا على دينه، تلبية لـــدافع العصبية القبلية، خرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشا، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمدا ﷺ .

وكان قد خطب بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبي ﷺ فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد بهما!

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حربا شعواء على النبي ﷺ وعلى الدعوة، لا هوادة فيها ولا هدنة. وكان بيت أبي لهب قريبا من بيت رسول الله ﷺ فكان الأذى أشد. وقد روي أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي؛ وقيل: إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة.

| | |

نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته. وتولى الله - سبحانه - عن رسوله ﷺ أمر المعركة!

" **تبت يدا أبي لهب وتب** " .. والتباب الهلاك والبوار والقطع. " **وتبت** " الأولى دعاء. " **وتب** " الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء. ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق، وتنتهي المعركة ويسدل الستار!

فأما الذي يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان.

" **ما أغنى عنه ماله وما كسب** " .. لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك. فلم يغن عنه ماله وسعيه و لم يدفع عنه الهلاك والدمار.

ذلك - كان - في الدنيا. أما في الآخرة فإنه: " **سيصلى نارا ذات لهب** " .. ويذكر اللهب تصويرا وتشخيصا للنار وإيحاء بتوقدها وتلهبها.

" **وامرأته حمالة الحطب** " .. وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب .. وحالة كونها: " **في جيدها حبل من مسد** " .. أي من ليف .. تشد هي به في النار. أو هي الحبل الذي تشد به الحطب. على المعنى الحقيقي إن كان المراد هو الشوك. أو المعنى المجازي إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعي بالأذى والوقيعة.

| | |

وفي الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها، نقتطف في بيانه سطورا من كتاب: " مشاهد القيامة في القرآن " نمهد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل التي ذعرت لها وجن جنونها:

" أبو لهب. سيصلى نارا ذات لهب .. وامرأته حمالة الحطب. ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد ..

" تناسق في اللفظ، وتناسق في الصورة. فجنهم هنا نار ذات لهب. يصلاها أبو لهب! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه بمعناه الحقيقي أو المجازي " .. والحطب مما يوقد به اللهب. وهي تحزم الحطب بحبل. فعذابها في النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد. ليتم الجزاء من جنس العمل، وتتم الصورة بمحتوياتها الساذجة: الحطب والحبل. والنار واللهب. يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب!

" وتناسق من لون آخر. في جرس الكلمات، مع الصوت الذي يحدثه شد أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد. اقرأ: **" تبت يدا أبي لهب وتب "** تجد فيها عنف الحزم والشد! الشبيه بحزم الحطب وشده. والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه. والشبيه بجو الحنق والتهديد الشائع في السورة.

" وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي، مع حركة العمل الصوتية، بتناسق الصور في جزئياتها المتناسقة، بتناسق الجناس اللفظي ومراعاة النظير في التعبير، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول. ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار، وفي سورة من أقصر سور القرآن " .

| | |

هذا التناسق القوي في التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول ﷺ قد هجاها بشعر. وبخاصة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زري لأم جميل خاصة. تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مدلة بحسبها ونسبها. ثم ترتسم لها هذه الصورة: **" حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد! "** في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب!

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر [أي بمقدار ملء الكف] من حجارة. فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى

إلا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر. أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني. والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه. أما والله واني لشاعرة! ثم قالت:

مذمما عصينا وأمره أبينا

ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: " ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني " ..

وروى الحافظ أبو بكر البزار - بإسناده - عن ابن عباس قال: لما نزلت: **" تبت يدا أبي لهب "** جاءت امرأة أبي لهب، ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبو بكر. فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشيء! فقال رسول الله ﷺ : " إنه سيحال بيني وبينها " .. فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، فقالت: يا أبا بكر، هجانا صاحبك. فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمصدق. فلما ولت قال أبو بكر: ما رأتك؟ قال: " لا. ما زال ملك يسترني حتى ولت " ..

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق، من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعرا [وكان الهجاء لا يكون إلا شعرا] مما نفاه لها أبو بكر وهو صادق! ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها، قد سجلت في الكتاب الخالد، وسجلتها صفحات الوجود أيضا تنطق بغضب الله وحربه لأبي لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله، والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا، والنار في الآخرة جزاء وفاقا، والذل الذي يشير إليه الحبل في الدنيا والآخرة جميعا .. .

هذه دعوتنا

| دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجـــرة إلى رســـوله ﷺ بتجريد المتابعة له.

| دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهمـــا السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله ، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

| دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

| دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين ، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها.

| دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلـــهم + **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** _

| دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والســـعي في قتـــال الطواغيـــت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

| ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا مـــن خذلهم حتى يأتي أمر الله.